الماضى القريب والماضى البعيد

فى أمثال الرومان أن« الكابيتول قريب من صخرة تربيا » . أما الكابيتول فهو ذلك التل المرتفع من تلال روما الذى كان عليه موطن الحكم . وأما صخرة تربيا ، فهى صخرة إلى جانب من الكابيتول كان يلقى من فوقها المجرمون المحكوم عليهم بالموت ، فيلقون حتفهم . ويقصد الرومان بهذا القول أن الارتفاع يعقبه الوقوع .

هذا من أمثال الرومان . والناس فى هذه الأزمان يرتقون الكابيتول عن طريق ممهد ذى درجات عريضة ؛ ليشهدوا ما فوقه من قصور صارت متاحف ، وليطلّوا من خلف التل على المكان السحيق الذى كان يلقى فيه المجرمون . يرتقى الناس فى هذا الطريق وهم يذكرون هذا المثل ، وقد جذب أعينهم تمثال مرقس أوريليوس الإمبراطور الفيلسوف ممتطيا جواده . وقد سلم هذا التمثال من عصور التعصب والجهل ، أيام القرون الوسطى ؛ إذ ظن المؤمنون أنه تمثال قديس ، لما اتسم به من سكينة ووقار . وقد يشغلهم منظر هذا التمثال الرائع وهم صعود ، عن أن يلقوا نظرة عابرة على تمثال صغير من البرونز إلى يسارهم هو تمثال رينزى أو كولادى رينزى ، وقد يلقون نظرة عليه دون أن يأبهوا به ، مع أن صاحب هذا التمثال أقرب من يصدق عليهم مثل الرومان القائل إن الكابيتول قريب من صخرة تربيا ، وهو يمثل شخصية فذة لا تزال تتكرر وبخاصة فى تاريخ إيطاليا ، فى الماضى البعيد والماضى القريب ؛ ومسلك شعب روما نحوه ، هو دائما مسلك الإيطاليين نحو رجالهم الذين خدموهم من قبل ومن بعد .

فى أول القرن الرابع عشر الميلادى كان النزاع المستمر بين البابا والإمبراطور قد بلغ مداه ، ذلك النزاع على السلطة الدنيوية الذى ابتدأ فى القرن الحادى عشر واستمر إلى القرن الثالث عشر . فالبابا يرى أنه صاحب

الكلمة العليا فى جميع البلاد المسيحية ، وان سلطانه الدنيوى يشمل جميع المسيحيين كما يشملهم سلطانه الدينى . والإمبراطور ، وكان فى ذلك الوقت عادة من الأمراء الألمان ، يرى أن سلطان البابا مقصور على الأمور الدينية ، وأن الأمراء إذ يخضعون له فى هذه الأمور ، لا ينزلون عن سلطانهم الدنيوى . ومن هنا نشأ هذا النزاع الذى انتصر فيه البابوات أكثر من مرة ، وأذلوا أباطرة الدولة الرومانية المقدسة أكثر من مرة ، وهُزم فيه البابوات غير مرة ، ولم يتورع هؤلاء الأباطرة عن إذلالهم غير مرة . وكانت هذه الحرب السجال وبالاً على الإمبراطور وعلى الكنيسة . فالكنيسة تستعمل سلطانها الدينى على قلوب المؤمنين ، وتستعمل سلاح الحرمان الرهيب فى قتال الإمبراطور ، والإمبراطور يستعمل سلاح التنديد برجال الكنيسة وبالبابا نفسه ، ويشكك الناس فى طهارة معيشتهم . وينتصر للإمبراطور أمراء وملوك يرجون منه خيراً ، وينتصر للبابا أمراء وملوك منافسون للإمبراطور .

فإذا أهلَّ القرن الرابع عشر كان هذا التنافس قد بلغ مداه بانتصار البابا فى الظاهر والقضاء على أسرة هوهنشتاوفن التى كان منها الأباطرة . ولكن هذا النصر لم يكن بلا ثمن ، فلقد انتصر البابا بفضل مساعدة ملك فرنسا ومؤازرته ، وفى سبيل النصر لم ينظر البابا إلى الثمن الذى كان عليه أن يدفعه .

جاء القرن الرابع عشر فإذا البابا لم يعد صاحب السلطان على المسيحية من عاصمة ملكه روما ، وإذا هو أسير أو كالأسير يعيش فى بلدة بإقليم متاخم لفرنسا . أما البلدة فهى أڤنيون ، وأما الإقليم فهو جنوب فرنسا الآن . لم يكن هؤلاء البابوات الذين اتخذوا أڤنيون مقاما أسرى فى الحقيقة ، فهم الذين رضوا لأنفسهم بهذا الوضع ، فلقد بلغ من سيطرة ملك فرنسا أن صار أكثر الكرادلة الذين ينتخب من بينهم البابا من الفرنسيين وصار البابوات ينتخبون من الفرنسيين كذلك . فالبابا كلمنتيو الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) . وهو أول من اتخذ أڤنيون مقاما ، كان من أهل جسكونيا ، وقد أصغى إلى نصيحة فيليب الجميل ملك فرنسا فلم يطأ بقدمه أرض روما . وانتخب البابا چيوڤانى الثانى عشر بعد أن ظل كرسى البابوية خاليا سنتين ، فلم يكتف بالإقامة ببلدة أڤنيون كسلفه إلى أن يحزم أمره على العودة إلى عاصمة المسيحية ، بل اتخذ له مسكنا ، وزاد فى بنائه ، حتى جعل منه قصراً و حصنا ، وهو الذى

يشاهد فى تلك البلدة إلى اليوم . وهكذا شعرت روما بأنها لم تعد عاصمة المسيحية .

ماذا كان تاثير ذلك فى روما ؟ وماذا كان تأثيره فى إيطاليا ؟

أما إيطاليا فكانت غارقة كعادتها فى انقساماتها والتنازع بين إماراتها ودولها المستقلة ، فهى مسرح للحروب فى سبيل المطامع ، يقوم بالقتال رجال حرب مأجورون من رجال الشمال الأشداء : ألمان وسويسريون ومجريون ؛ وهم رجال أشداء ، ولكن ليس من صالحهم أن تنتهى هذه الحروب وقد اتخذوها مهنة . وإذا انتهى هؤلاء الأمراء الإيطاليون وانتهت هاته الجمهوريات من المشاحنة ، فما مصير هؤلاء الجنود ؟ وأى عمل يمتهنون ؟

إذن فلتستمر هذه الخلافات ، ولتبق هذه المطامع تعمى الأبصار عن الطريق السوى . ولكن بين الناس من ليسوا أمراء ، وبينهم من لا يتجهون اتجاه الأمراء فى المطامع ، وفى إيطاليا حول ذلك العصر زادت العيون تفتحا ، وأخذ الناس يقبلون على هذه الحياة الدنيوية ويحاولون فهمها ، وزاد الميل بينهم إلى الدراسة وإلى لذة الحياة العقلية ، فإذا هم يجدون بينهم كنزاً كان مطموراً . فهذه كتب اليونان والرومان بين أيديهم منها شئ كثير ، وفيها من الإنتاج الفكرى كل ماهو عظيم . وهذه آثار الرومان والتماثيل التى أخرجت من باطن الأرض تدل على مجد قديم ، فما أبعد الفرق بين الماضى المجيد ، والحاضر عندئذ ! ولكن ما السبب فى هذا الفرق ؟ ولماذا نزلت إيطاليا من عليائها وصارت نهبا للبرابرة من شعوب الشمال ؟ ألا يمكن العودة إلى ذلك المجد القديم ؟ بلى ! والبرهان على ذلك أن شاعرا حديثا أخرج معجزة من معجزات الأدب لا تقل عن آثار الأوائل . ألم يخرج دانتى فى تلك الأيام ملحمته « الكوميديا الإلهية » صاغها شعراً ، فأحيا الآمال فى قلوب المفكرين من أبناء وطنه ؟ فملحمته لم تكن شعراً نادراً بقدر ما هى عمل من أعمال الإرادة يدل على أن الإيطاليين ورثوا المجد القديم ، وأن لغتهم الحديثة قادرة على منافسة اللغات القديمة ، وفيها من الحياة ما قد يبلغ مبلغ القديم .

زاد إقبال الناس على الدراسات يستزيدون منها ، ويقارنون بين الماضى المجيد والحاضر وما فيه من تخاذل وانحطاط ، فظهر تياران من التفكير : فريق انصرف إلى الدراسات القديمة ، ونبذ كل تعاليم الكنيسة ، ورأى فيها سبب

الانحطاط ، ومجّد الوثنية وآثارها ؛ وإلى هذه الناحية اتجه مارسيليو وأوكام ، ويمثل هذه الروح فى عالم الأدب بوكاتشيو . وفريق رأى أن الدراسات القديمة لا تتعارض مع المسيحية ، وأن ما يؤخذ على الكنيسة من مساوئ إنما هو من عمل رجالها لا من فكرتها ، وفى طليعة الأدباء الذين نحوا هذا النحو فى ذلك العهد بترارکا .

هذا فى إيطاليا . أما فى روما فقد تأثر المفكرون بهذه النهضة الفكرية ، وظهر هذان التياران ، إلا أنه من الطبيعى أن يكون التيار الثانى غالباً . فروما لم تنس انها عاصمة المسيحية كما كانت عاصمة الدولة الرومانية العظيمة ، وقدظلت روما ألف سنة عاصمة المسيحية ، وهى فى تلك الأيام لم تعد كذلك ، وقد هجرها هؤلاء البابوات الفرنسيون ، فالمدينة فقدت مجدها القديم ، وهى تكاد تفقد مجدها الحديث ، وقد سادتها الفوضى وصار أهلها بلا معين أمام أسر أشرافها المتنازعين المتنافسين ، المتقاتلين بالأجراء من جنود البرابرة . ولم تعد تخترق شوارع المدينة تلك المواكب الدينية العظيمة التى كانت تخفى ما فيها من مناظر الفاقة . ولقد استطاع البابوات أن يعيشوا فى أفنيون فى كنف ملك أجنبى ، ولكن الرومانيين لا يستطيعون أن يعيشوا بغير البابا ؛ ولذلك كانوا فى تلك الفترة يرسلون الوفود إلى بابوات أفنيون يلتمسون منهم العودة إلى مدينتهم الخالدة . ولكن هؤلاء البابوات يؤثرون الأمن والدعة فى حمى الملك الأجنبى ، على العودة إلى عاصمتهم وفيها الأحداث والاضطرابات ، وبين أشرافها النزاع والنضال

كان فتى من فتيان مدينة روما ، فى نحو التاسعة عشرة من عمره ، يشهد هذه الأحداث ويفكر فيها ، فتتألم نفسه ؛ ولكن ماذا يفعل وهو صغير لا يقوى على شىء ، وهو فقير ليس فى يده شىء ؟ فوالده صاحب حانة صغيرة لا يمتلك إلا قوت يومه . إنه لا يستطيع أن يفعل غير ما يفعله الفتى الجاد لنفسه ، فهو يقبل على تثقيف نفسه ويقبل على الدرس إقبالا عجيباً ، فيعكف على دراسة المؤلفين القدماء من يونانيين ورومانيين ، ودراسة التوراة والإنجيل ، ويتعلم النحو منه والفلسفة والخطابة ، ويستظهر أقوال المؤلفين القدماء . وهو فى خلال ذلك يجوب أنحاء المدينة باحثاً عن آثار روما القديمة التى أخفاها الإهمال ، فاحصًا لها دارساً تاريخها ، ومن هذه الآثار كان يستوحى المجد الغابر ، ويشعر بالذل الحاضر .

بلغ رينزى السن التى كان عليه فيها أن يتخذ له مهنة ، فجنح إلى مهنة القلم ؛ لأنها أقرب إلى مواهبه وقلبه ، وصار محامياً ، وكان بارعاً فى صناعة القلم ، بليغ العبارة . ولكن الله وهب له موهبة كان لها تأثير بالغ فى حياته ، فقد كان ذلق اللسان ينفذ حديثه إلى القلوب ، ويتسلط بالقول على الجماهير . وكانت أحداث ذلك الزمن وما فى المدينة من فوضى واضطراب وإهمال وفاقة ، أكبر مجال للقول ، فهى تبعث أبناءها على أن يندبوا حظها ، ويقارنوا بين ما كانت عليه من عزة ورخاء ، وما هى فيه من ذل ومسغبة . وفى هذا المجال ظهر نجم رينزى وأخذت شهرته تتسع ، وأخذ يجد السامعين والمصغين إلى أقواله ، فتجول فى نفسه خواطر وآمال استقاها من تاريخ تلك الأرض التى لا يزال يطؤها ، ومن تلك الدماء التى يظن أنها تجرى فى عروقه صافية ، كما يظن أهل روما .

كان أهم ما يشغل المدينة فى تلك الأيام خاصة ، كما يشغل أهل إيطاليا عامة ، عودة البابا إلى مدينته الخالدة . ولقد توفى البابا نديتو الثانى عشر (١٣٣٤—١٣٤٢) فى قصره بأڤنيون ، وانتخب البابا كلمنتيو السادس (١٣٤٢—١٣٥٢) فرئى تأليف سفارة من كبراء المدينة ومتوسطيها وعامتها لتهنئته ولتسليمه السلطة الوطنية فى المدينة ، والالتماس منه أن يتولى كرسى القديس بطرس . وكان فى هذه السفارة شاعر النهضة العظيم بتراركا ، وكان فيها كولادى رينزى . وما لبث بفضله أن برز صوت الشعب ظاهراً ؛ فهو يتكلم فى عبارة طلية ويذكر أنه منـدوب الشعب ونائب الفقراء والأرامل والأيامى ، ويعرض الحـوادث وما حاق بروما بسبب ابتعاد البابا عنها ، ويتحدث حديثاً قريباً إلى تلك المثل التى كان يحلم بها الشاعر بتراركا ، حتى لقد تصور الشاعر أنه مبعوث من العناية جاء ليحقق تلك الآمال الجليلة التى تجيش فى نفسه نحو بلاده فيرد إليها الحرية ، ويرد إليها النظام ، ويعود زعيم المسيحية إلى مدينته ، وتحيا الإمبراطورية الرومانية ، كما كانت وليدة ، إرادة الشعب الايطالى ، وتصير روما بفضل ذلك سيدة العالم !

هكذا شعر الشاعر العظيم حين رأى نائب الشعب يتكلم ، وهكذا عقدت بينهما أواصر صداقة متينة .

وجد هذا الخطيب الجمهورى أذناً صاغية لدى البابا نفسه ؛ فقد تحدث إليه شارحاً ما فيه الشعب الرومانى من بؤس وضيق ، وما عليه النبلاء من صلف

وظلم . وكان البابا رجلا مثقفاً عليما بأصول الخطابة ، فقد كان أستاذاً للدراسات الدينية فى جامعة باريس ، وكان مستشاراً لدى فيليب دى ڤالوا ، فسُرَّ من الفتى الرومانى الذى يعرف فنون القول ، على أن أحد أمراء الكنيسة ، وهو الكردينال چيوڤانى كولونا ، كان حاضراً ، فلم يعجبه ما قاله الخطيب الشعبى فى حق بنى عمومته من أشراف روما ، فعرف كيف يباعد بين كولا وبين البابا ، وعرف كيف يغضب عليه البابا ، فمنعه من دخول القصر . وعاش كولا بعض الوقت فى تلك المدينة وقد هجره زملاؤه وتجافاه الناس ، فكان يقف كما يقول « فى الشمس مثل الكلاب » وكان رجال الكنيسة يقاطعونه ، وقد أضر به الجوع حتى كاد يسأل الناس .

على أن بترارکا ما علم بما وصل إليه الصديق حتى أخذ يسعى ويسعى ؛ ليزيل ما بنفس الكردينال منه ، حتى رضى عنه هذا السيد ، وتوسط له لدى البابا ، فعينه البابا عضواً فى المجلس البلدى بروما ، وحمله رسالة يثنى فيها البابا عليه وعلى إخلاصه وعلمه ، وحماه من الأشراف الذين كانوا يريدون مؤاخذته على ما فاه به عنهم .

كان مركز الزعيم يقوى لدى الشعب على مر الزمن ، وكان أعداؤه من الأشراف يزدادون . ففى ذات يوم من شهر إبريل سنة ١٣٤٤ كان المجلس ينظر فى أمر من الأمور ، فإذا الخطيب يقف فجأة ، وقفة شيشرون فى الماضى عندما أخذ فى اتهام كاتلينا ، وإذا هو يلقى خطاباً يحمل فيه على القضاة والحكام والأشراف ويقول : « لستم وطنيين . أنتم لا تبغون الخير بل تعملون للشر . إنكم تسفكون دماء الشعب ، وفى كل شارع وفى كل بيت تلجأون إلى النهب والعنف ، ترفضون كل نظام ، تدنسون كل مقدس ، تغتصبون الحقوق ، وتدَّعون الامتيازات ، وتتهربون من القوانين . . . »

سكت الأعضاء ، وقد أدهشتهم هذه الجرأة ، لكن أحد أفراد أسرة كولونا الشريفة ، قام فى التو وقصد إليه ولم يكلمه بل صفعه !

بعد هذا الحادث عدل الخطيب عن طريقته واتخذ طريقاً آخر ، فكان يلجأ إلى التلميح بدل التصريح ، وكان يفضل الإشارة ، فيعلق صوراً فى أمكنة ظاهرة من روما ترمز إلى مجد روما وعزها الماضى وذلها الحاضر .

وفى ذات يوم عثر على لوحة أثرية كتب عليها قانون ملكى ، فيه أمر من مجلس

الشيوخ الرومانى بمنح الإمبراطور فسبزيانو سلطة الإمبراطوريه ، فجمع أعضاء المجلس وحاضرهم فى هذا الأمر ، مظهراً ما كان لمجلس الشيوخ من عظمة ، وكيف كان سلطانه أقوى من سلطان الإمبراطور نفسه ؛ إذ كان منه يستمد الإمبراطور السلطة .

ثم عدل رينزى عن سياسته فى الحملة على الأشراف فصار يخالطهم وصاروا يدعونه إلى دورهم ، وأقلع عن تحديهم علناً . وكانوا يعتدون بأنفسهم ، فلا يظنون أن أحداً يجرؤ على مناوأتهم . وزادت الخلطة بينه وبينهم ؛ ففى ذات مرة كان مدعواً إلى دار أسرة كولونا ، وقال له أحدهم ممازحاً : « إنا لنمالئك إذ نرى أوداجك قد انتفخت ، وقد تعتبر دوقا إن لم تكن إمبراطورا . » فأجابه رينزى : « سأكون بلا ريب إمبراطوراً ، والويل عندئذ لكم ! » وحينئذ دعاه الحاضرون إلى أن يلقى عليهم بعض القول صائحين : « ألق موعظة من مواعظك » ورفعوه فوق مائدة . فأخذ يخطبهم مؤنباً طاعناً فيهم وفى أعمالهم ؛ وكلما زاد فى التأنيب ازدادوا ضحكا !

مع كل هذا ، وفى غفلة من هؤلاء الأشراف كان رينزى يدبر أموره ، ويعد العدة لعهد أمن وإصلاح فى روما ، فكان يجمع الأنصار وينظم الرجال من بين قوم يريدون لبلدهم خيرا .

وفى ١٩ مايو سنة ١٣٤٧ ، وكان زعيم أسرة كولونا أقوى الأسر الشريفة خارج روما مع رجاله ، جمع الزعيم الشعبى أنصاره قبيل الفجر ، وكان قد أخذ فى الصلاة منذ منتصف الليل ، وخرج إليهم من الكنيسة ، وقد لبس الدرع إلا أنه كان عارى الرأس ، وكان إلى جانبه مندوب البابا الذى انضم إليه ، وتبعه أنصاره فى حفل حاشد ، وعلى رأسه تخفق ثلاثة ألوية ترمز إلى روما والبابوية ، وسار فى موكب إلى قصر الحكم حيث خطب الناس خطبة عظيمة ، ثم قرأ أحد أعوانه النظام الجديد الصالح الذى يراد به الخير ، والذى يكون فيه السلطان للشعب لا للأشراف ، حيث يؤخذ المذنب بجريرته دون نظره إلى مركزه الاجتماعى ، ويسود الأمن وتسود الطمأنينة .

وصاحت الحشود تضع السلطة فى يد الزعيم ، وله أن يختار من الألقاب ما يشاء ، فليكن طاغية ، دكتاتورا فى سبيل الإصلاح ، فليكن دوقا ، دوتشى ، أو ما شاء . ولكن الزعيم يقنع بلقب رومانى معروف هو « زعيم

الشعب » ليحمل لواء الحرية والعدل فى الجمهورية الرومانية المقدسة .

هكذا تم هذا الانقلاب من غير أن يسفك دم . وأخذ رينزى يعمل فى الحال على تنظيم المدينة وحفظ الأمن . وترامت أنباء هذا الانقلاب إلى الخارج ، وأرسل رينزى الرسل ، والرسائل ليعلم من لم يعلم من الأمراء بهذا الانقلاب . ولم تكن يداه خاليتين من العمل داخل رومًا نفسها ، فمن البديهى ألاّ يرضى الأشراف عن هذا النظام . وكان ستفانو كولونا زعيم الأسرة أول من غضب حين ترامت إليه الأنباء وهو فى رحلته ، فعاد فى التو إلى روما ليطرد الدعى فى رأيه . وكان ستفانو حديديًّا شارف التسعين من عمره ، ومع ذلك يمتطى جواده بلا مساعد ، وله من الأولاد والحفدة عدد كبير ، ألفوا السلاح ورضعوا من دماء أسرة أورسينى خصومهم منذ نعومة أظفارهم . وقد مرت بستفانو أحداث كثيرة فى عمره الطويل ، فهل يهتم بجنون هذا المهرج !

عاد ستفانو قاصداً روما ، فما أشرف عليها حتى جاءه رسول الزعيم يعلنه بالعودة من حيث أتى ، فكان جوابه فى بساطة : « قل لهذا المجنون إنى إن غضبت عليه بعض الغضب ، فسألقيه من نافذة القصر » . وسمع الزعيم بهذا التهديد فقرع أجراس المدينة ، وإذا الشعب يحتشد فى جموع هائلة ، وإذا ستفانو يضطر أن يتراجع أمام المجنون المهرج ويعود أدراجه .

أصدر الزعيم بعد ذلك أمراً إلى جميع الأشراف أن يلزموا ضياعهم وقصورهم واحتل رجاله الجسور والمواقع المحصنة ، ودمر ما أقامه الأشراف من متاريس وحصون داخل المدينة ، وقبض على رؤساء العصابات الإجرامية فى روما وفيما حولها من بلاد ، وطلب إلى الأشراف أن يوافوه إلى مقر الحكم حيث دعاهم إلى أن يقسموا بأن يخضعوا لقوانين الدولة ، ثم دعا من بعدهم القضاة ثم المحامين ثم التجار ليقسموا يمين الإخلاص . وأقام محكمة العدل ؛ لتفصل فى الخصومات ، ولمعاقبة المجرمين ، فاستتب الأمن فى روما وفيما حولها من البلاد

وكان الزعيم يعمل ليلا ونهارا للنظر فى أمور الدولة وفى مخاطبة الدول والأمراء ، وهو يملى على كتّابه رسائل بليغة يشرح فيها أغراضه ومراميه لخير روما وإيطاليا شرحاً وافيا ، فهو يطلعهم على ما حققه لروما من سعادة ، وهو يرجوهم أن يرسلوا إليه مندوبين وخبراء للجمعية الكبيرة التى تحقق إقامة الدولة الصالحة ، وتعمل فى روما على عقد معاهدة تحالف عام لتحرير البلاد الإيطالية

عامة من استعباد الأجنبى ، وكانت هذه الآمال التى كانت تجيش فى صدره تجيش فى صدر كل ايطالى . ولئن كان من العجيب أن تجد هذه الآمال من يدعو إليها ويعمل على تحقيقها فى زمن انقسمت فيه المدن والإمارات الإيطالية وتفرقت شيعاً ، وكان يحارب بعضها بعضاً ، مستعينين بالقواد والجيوش الأجانب. وكان بعض الأراضى الإيطالية تابعاً لملك فرنسا ، وبعضها تابعاً لملك أسبانيا ، وبعضها تابعاً للإمبراطور الألمانى ، فليس عجيباً أن تهز هـذه الدعوة القلوب وأن يجد كولا دى رينزى شاعراً عظيما ومفكراً جليلا مثل بترارکا يقول : « أكرموا أيها المواطنون هذا الرجل . أكرموه فهو يكاد يكون رسول العناية ، ونعمة نادرة من نعم الله ، وابذلوا حياتكم فى سبيل سلامته . »

كان الأشراف يتربصون به السوء ، وكان الزعيم الشعبى وقد زادت سلطته يتحداهم . وقد أتى فى سبيل ذلك بأعمال تؤخذ عليه ، وتدل على القسوة ، وإن كانت ليست بالمستغربة فى عصره . فمن ذلك أن أحد الأشراف لزم قصره ولم يأت ليقسم يمين الإخلاص للدولة الصالحة ، لعجزه عن ذلك ؛ فقد كان مريضاً بداء عضال لايقوى معه على الحراك ، فأمر الزعيم بأن يقتل لعدم طاعته ، حتى يكون عبرة لغيره من الأشراف .

وفى ذات يوم دعا ثلاثة من أكبر رجال أسرة أورسينى ، واثنين من أسرة كولونا من بينهم ستفانو زعيم الأسرة ، وتحدث إليهم فى أمر دولته ، فأغلظوا له القول ، فأمر باعتقالهم على أنهم خونة للدولة وعزم على قتلهم ، وأرسل إليهم قسًّا ليعترفوا له اعترافهم الأخير ، وتجمع أهل روما ليروا مشهد الفتك بهؤلاء الأشراف . ولكن الزعيم الشعبى أخذته الرأفة فى اللحظة الأخيرة ، فاندفع يخطب الجمهور فى أمرهم ويلومهم على كراهيتهم للنظام الذى أقامه وتدابيرهم فى الخفاء للقضاء على الدولة ، ثم أعلن الصفح عنهم ، وعينهم قواداً لحماية دولته

مثل هذا العفو لم يكن إلا ليزيد حفيظتهم وكراهيتهم للزعيم ، فاتحدت كلمتهم على مقاومته والسعى للقضاء عليه .

بدءوا يقاومونه فعلا بأن التجئوا إلى ضياعهم ومدنهم الحصينة حول روما وعملوا على منع الأقوات من أن تصل إلى المدينة ، فأخذ القوت يقل فيها ، وعجز عامة الناس عن الحصول عليه ، وأخذ رينزى يعمل على مقاومة من أعلن العصيان

منهم علانية ، وينظم الجنود من أبناء روما لقتالهم . ومن الطبيعى أن يمر على الناس بسبب الضيق نوع من عدم الثقة فى الدولة الصالحة . وشعر رينزى بالعسر المالى حين اضطر إلى تجنيد الجنود من أهل روما ، ففرض ضريبة على الملح ضاق بها العامة ، فلم تعد عبارات الزعيم تؤثر فيهم ، ذلك الزعيم الذى كان مثلهم فقيراً معدما ، وهو الآن ينافس الأشراف فى ثرائهم ويظهر لهم كل يوم فى ثياب الحرير المزركشة بالقصب أو فى دروع مزخرفة بالذهب .

يقال لهم إنهم يقاتلون من أجل الوطن ، ولكنهم لايرون فى تلك الحروب المتصلة مع الأشراف قتالا من أجل الوطن . وللأشراف بعدُ فضائلهم ، فهم إذا ظلموا العامة فإنهم يعرفون فى احتفالاتهم كيف يرضونهم ، وكيف يوزعون عليهم فى سخاء ما سرقوه ونهبوه منهم . وزعيم الشعب لايعرف هذا الفن فى حفلاته ، وهو أجدر فى هذه الحفلات أن يسمى زعيم الكلام .

استغل خصوم رينزى هذا الانقلاب فى عقلية الجمهور كما استغلوا خلافا من نوع آخر أشد خطراً فى ذلك العصر ؛ فمن الطبيعى أن يحدث بين الزعيم القوى صاحب السلطان وبين نائب البابا خلاف على السلطة ، ومن الطبيعى أن ينقل نائب البابا هذا الخلاف إلى المجال الدينى ؛ ففى تصرفات رينزى وبطشه بخصومه ما لايتفق مع سياسة الكنيسة ، وفى أفعال رينزى فى احتفالاته التى كانت مزيجاً من الاحتفالات الدينية والرومانية القديمة ما لايتفق مع الكنيسة ، وفى الآراء التى كان يفوه بها ما لايتفق مع الكنيسة ؛ وقد أدى ذلك كله إلى أن وقعت الكنيسة عليه عقوبة الحرمان ، فانفض الناس من حوله ، فنزل عن سلطانه لنائب البابا ، وفر من المدينة .

فى شهر يوليه من سنة ١٣٥٠ وصل إلى مدينة براغ رجل فى ثياب راهب ، وقصد إلى قصر لودفيج ملك هنجاريا ، وطلب مقابلته فى أمر خاص ، فوافق الملك على مقابلة الراهب المجهول . فلما مثل الغريب بين يديه تحدث إليه عن راهب يعيش فى مونتشللو اسمه الأب أنچيولا ، وقال : « لقد اختار سفيرين أرسل أحدهما إلى البابا فى أڤنيون ، وأرسل الثانى إليك أيها الإمبراطور . »

فنظر إليه الملك الهنجارى بعينيه الواسعتين وقال له : « إذن تكلم » .

فتكلم الغريب طويلا ، فذكر أن العالم يدخل فى طور جديد تكون فيه سعادة

ويكون فيه رخاء ، وتكون فيه عزة للأمم المسيحية . وعرف الملك من الحديث بعض آراء صاحبه فقال : « إنى لأكاد أعرف من أنت » . فقال الغريب : « من تظننى أكون؟ » قال الملك : « أظن أنك الزعيم الشعبى لروما . » فقال رينزى « أجل ! إنى كولا الذى كان من فضل الله عليه أن حكم فى سلم وفى عدل وفى حرية ، مدينة روما . »

وتحدث كولا لى الملك طويلا عن روما ومجدها القديم وما يريده لها من مجد حديث ، وعن الكنيسة وما ينتظر لها من رفعة فى ظل راع جديد يتوج الملك ، فيجعله إمبراطوراً وسيداً على بلاد الغرب ، ويعيد الزعيم الشعبى إلى روما ، فيمد سلطانها ، ويصير سيداً على الشرق . وكان الملك يسمع هذه الأحلام والآمال فى صمت ، ولكنه أرسل كولا دى رينزى إلى أسقف المدينة ، وعلماء الدين كى يباحثهم فيما عزته إليه الكنيسة من أقوال مثيرة اعتبرتها خروجاً على تعاليمها .

أقام كولا رينزى فترة من الزمن فى براغ يتردد على رجال الدين ، ويمضى أيامه فى مناقشتهم ، وقد أدهش علماء تلك البلاد بخصب تفكيره . وكان لا يعيش عيش التقشف ، بل يتبع الألمان فى كثرة أكلهم وشرابهم ، ثم نقله الملك إلى حصن على نهر الألب حيث بقى سجيناً عدة أشهر ، وكان الجو لا يلائمه ، ولم يكن واثقاً من مستقبله ، فكان يمضى الوقت فى كتابة الرسائل إلى الملك يرجوه أن يستحث محكمة رجال الدين على النظر فى مسألته ، فقرر الملك أن يرسله إلى البابا فى أفينيون فنقل إليها محروساً .

مثل رينزى أمام محكمة الكرادلة ، فلم يطلقوا سراحه كما فعلوا منذ زمن قصير بالملكة جيوفانا ملكة نابولى التى خانت زوجها ثم اشتركت مع عشيقها فى قتله ، بل قضوا بسجنه ، فوضع فى قلعة من أحصن قلاع القصر مكبلا بالأغلال ، وكان الغل مثبتاً فى جدار الغرفة .

ثم حدث فى هذه الأثناء أن توفى البابا القائم ، ووقع الاختيار على أسقف أوستيا ، فتولى عرش البابوية تحت اسم أنوسنزو السادس ، فعفا عن كولا وباركه وعينه مساعداً للكردنيال البورفوزو الذى عهد إليه بتهدئة إيطاليا وإعادة حقوق الكنيسة فى روما .

سافر رينزى إلى بروجيا وأقام فيها بعض الوقت إلى أن تمكن من مقابلة

الكردينال البورفوزو ، وفى حديثه الخلاب طلب إليه أن يعينه قنصلا على روما ، وهو يعرف كيف يعيد إلى الكنيسة حقوقها ، ويعيد الأمن إلى تلك المدينة ، فأجابه الكردينال إلى طلبه ، وعينه قنصلا على روما .

عاد إلى روما فى كوكبة من الرجال ، فقابله أهل المدينة كما يقابل الفاتح وزينت الشوارع والجسور وارتفعت أصوات الهتاف والتهليل إلى عنان السماء . فلقد عرف أهل روما فضله بعد ذهابه ، وذاقوا عذاب الفوضى والظلم . وقبض رينزى على زمام الحكم بقوة وعزم ، وأخذ يصرف الأمور بميزانه الذى لم يكن عدلا كله ، ولكنه فى ذلك العصر كان يعد ميزان العدل . وعاد الزعيم إلى كتابة رسائله وإرسالها إلى الملوك والأمراء كعادته يشرح فيها آماله من أجل روما وإيطاليا ، وما يرجوه لها من رفعة ومجد ، ويستحثهم على مؤازرته فى مقصده .

وحاول رينزى أن يخضع الأشراف للنظام والقانون ، فلم يستجيبوا له ، بل كانوا فى هذه المرة أشد عداء له ، وأكثر اتحاداً على مقاومته ، فعزم على كسر شوكتهم والقضاء عليهم وفى طليعتهم أسرة كولونا

اشتد رينزى على الأشراف ، وأخذ يقاتل الذين تحصنوا منهم فى حصونهم ، ويهاجم حصون آل كولونا وقراهم ، وسقط فى يديه بعض الأشراف من أسرة كولونا فما رحمهم ، بل نكل بهم تنكيلا ، متهما إياهم بالسرقة والنهب والعدوان . وكان من بين قواد الجيوش المرتزقة قائد كبير جمع ثروة كبيرة من الاعتداءات ومن تأجير عصاباته للأمراء ، وقد استعان رينزى بأخويه على قتال الأشراف فطالبا بزيادة أجرهما فلم يلب رينزى طلبهما ، فدخل أخوهما ضواحى روما غازيا ، وكان رينزى يحاصر حصاراً شديداً مدينة بلسترينا معقل آل كولونا ، فرفع الحصار . فأرسل القائد إلى رينزى رسولا يطلب المصالحة على أن يدفع مبلغاً من المال ، فرضى رينزى وأمنه على نفسه ودعاه لمقابلته ، فما جاء إليه حتى أمر بالقبض عليه وحوكم على أنه قاتل ، وقاطع طرق ، وناهب ، فحكم عليه بالموت وقتل على مشهد جمهور كبير من أهل روما ، وصودرت أمواله جميعاً ؛ فذهب بعضها إلى رينزى ، وذهب بعضها إلى نائب البابا ، وبعضها ذهب إلى خزانة البابا نفسه .

ثم فترت حماسة الجمهور الرومانى المتقلب ، وأخذوا يرمون الزعيم بالظلم والقسوة ؛ فقاتلته الأشراف ليست إلا العمل للقضاء على أبناء روما ، وقتله

قائد الجيوش المأجورة ليس إلا الطمع فى أمواله . وبدلا من أن يجد الرومانيون فى قتل هذا القائد القضاء على عامل من عوامل الفساد فى الحياة الإيطالية ، فإنهم تأثروا لموته ، وعدّوه شهيداً أو كالشهيد . ووجدوا أسباباً أخرى لاستيائهم ؛ فقد زاد رينزى ضريبة الملح كى يتمكن من مقابلة النفقات المتزايدة لجنوده من أبناء روما ؛ فإن هؤلاء أصبحوا لا يقبلون الأجور الزهيدة على اعتبار أنهم إنما يعملون لخير وطنهم ، بل طالبوا بأن تكون أجورهم مثل أجور الأجانب الذين يعملون فى خدمة الأشراف . ألم يتغلبوا على الأجانب أكثر من مرة ؟ فلم ينقدون أجوراً أقل منهم ؟

تجمعت الأشياء كما تتجمع سحب الشتاء ، وشعر رينزى بهبوب العاصفة وأخذ الأشراف يستعدون للموقف الفصل ، وفى ذات يوم سمع رينزى فى قصر الحكم صيحة معروفة فى روما : « أيها الشعب ! أيها الشعب ! » وهى صيحة أسرة كولونا المعروفة فى الحروب وإلى جانبها صيحة خطيرة ترتفع من أفواه الجماهير : « ليمت الخائن الذى فرض الضرائب » وكانت الجماهير تهاجم القصر .

وقف الزعيم حائراً ، وفكر فى أن يرتدى درعه ، وأن يخرج مرة أخرى إلى الجمهور ، ويسلط عليهم سحر بيانه ، فارتدى الدرع وخرج إلى الشرفة ، ولكنه قوبل بالحجارة والنبال فارتد إلى الداخل ، وخلع درعه فى سرعة ؛ ولبس ثياباً حقيرة ، وعمد إلى أغطية السرير وربطها وتدلى إلى الشارع من خلف القصر ، وكان الجمهور بقيادة الأشراف يشعل النار فى الأبواب الخارجية للقصر ، فما اجتازها حتى وجد أمامه الأبواب الداخلية ، فأخذ يشعل النار فيها .

سار الزعيم فى طريقه ، وتمكن من اختراق النطاق الأول من الحراس الذى ضربه الثائرون حول القصر ، فما وصل إلى النطاق الثانى حتى عرفه بعض الحراس فقبضوا عليه ، وتصايحوا بأنهم قبضوا على الخائن وعاجلته الطعنات من كل جانب ، فخر صريعاً فى أيدى الجمهور ، وجره أتباع آل كولونا إلى قصرهم فى روما حيث بقيت جثة الزعيم معلقة بضعة أيام إلى أن أمر أعداؤه بدفنه .

وهكذا حدثت مأساة الماضى القريب ، فى ذلك الماضى البعيد ، رينزى الذى وصفه أحد المؤرخين فقال إنه كشهاب لامع فى سماء روما ، أضاء فترة ثم انطفأ ، فأعقب ظلاما .

حسن محمود